

الجامعة الازهرية

لصاحب الفصيح الاستاذ صاحب التوفيق

١ - عقاية القرون الوسطى - ٢ - حرية الفكر والتعاليم الدينية - ٣ - العنصر الجديد في الازهر - ٤ - الازهر والسياسة - ٥ - الرجعية السياسية - ٦ - الاصلاح المنشود - ٧ - النتيجة

١ - عقاية القرون الوسطى .

لا نظن أن تعريفاً نضعه لتحديد « عقاية القرون الوسطى » يمكن بأي وجه من لوجوه ، أن يكون مرضياً للكثيرين ممن يعتقدون أن هذه « العقاية » إذا تطورت أو انتهت التغيير بصورة من الصور ؛ يهدم ركن الدين ، وينهار قائم اليقين ، ويصبح الناس فوضى لا نظام لهم ولا أخلاق تردعهم عن فعل الشرور والآثام وارتكاب المعصيات ، كأنما هم يعتقدون أن هذا النظام الاجتماعي هو من صنع يدهم ونتيجة من نتائج قوانينهم وشرائعهم التي يتذرعون بأن ينيلوها قسراً من التأثير النفساني بأن يردوها إلى قوى الغيب ، غير عاين أن نظاماتهم وقوانينهم وشرائعهم إنما هي مظهر من مظاهر الاجتماعية ، وتعبير بسيط عما يقوم في جسم الكل الاجتماعي من الحاجات التي يتطلبها وجوده ؛ وإنما في ذاتها عرض لا جوهر ، وأن الاجتماع أصلي ، ادراكه على صورة قريبة من الواقع ، مرهون على أن نفهم من تلك الشرائع والقوانين والمعتقدات أنها أهم مظاهره ؛ لا أنها في ذاتها جوهر ، الاجتماع عرضه ، وإنما علة ، نظام الأشياء الانسانية معلولها .

يعتقدون خطأ بأن الشرائع علة في وجود الحالة الاجتماعية ، في حين أن عكس هذه النظرية صحيح من كل الوجوه . هم لا يقولون مثلاً بأن الشرائع حرمت السرقة لأنها مضرّة بالاجتماعية ، بل يقولون ، بأن حظر السرقة علة في وجود الاجتماع . كأنما هم بذلك يحاولون أن يثبتوا أن الحالة الاجتماعية الطبيعية مرهونة على بقاء شرائعهم كما هي ، وأن هذه الشرائع إذا تغيرت أو تطورت ، تهدم ركن الاجتماع ، على معتقدهم .

لهذا وحده يعزى السبب في جمود عقلية القرون الوسطى وعجزها عن مساهمة الاجتماع الانساني في ترقيه التدرجى نحو الغايات العليا . ولا جرم أن هذا هو السبب في الصدام الذى وقع فى القرون الوسطى بين الكنائس وأهل العلم ، ويعزوه بعض الناس خطأ الى نزعة الدين نفسه ، وما ذلك من نزعة الدين في كثير ولا قليل .

هذه العقلية ، اذا أردنا أن نعرفها تعريفاً دقيقاً ، لم تصبح في نظارنا أكثر من انها الصورة الذهنية التى تتركز حول مجموعة من المزايم المنقولة أو الشرائع التى يدعى بأنها منزلة ، وحول تفسيراتها التى يفسرها بها أئمة الدين ورؤساؤه ، فتؤخذ على أنها ثابتة لا مبدل لها ، فتغضى على الطريقة العقلية التى تحاول أن تصفى هذه المنقولات الاخبارية من أثر الوهم والاساطير .

هذه العقلية بذاتها هي العقلية التى قامت عليها الجامعة الازهرية ، وعليها تقوم الى الآن . ولقد كان لهذه العقلية آثارها البعيدة في مشاعر الناس وتصوراتهم على مدى العصور والاجيال . فهي التى صدمت تيار التقدم الانساني وهى التى عاقبت « العقل » على نزعاته الحرة ، وهى التى ادعت خلال العصور أنها السنة التى سنّها الله خلّقه في الارض ، وانها الكفيلة بانخلاص الاخرى ، وأنها تملك الدينونة الصغرى ، وأن الله يملك الدينونة الكبرى .

ولقد تبرع على عرش هذه العقلية ملوك وأمراء ، حفت بهم هيئات مختلفة من رجال الدين . استمدوا سلطتهم من نبع واحد وناعوا بعقليتهم هذه على الجماهير يقتلون فيها حب البحث والحرية تخليصاً لهم في أخراهم بأن يهدوهم في دنياهم ، في حين أن تاريخ هذه الفئات ، التى اعتقد خطأ بأنها ظلال الله فوق الارض ، لم يدل يوماً الا على أنهم أشد الناس اسفاً في النزعات وانهم أكثر خلق الله طماعية وثباتاً على الخطا . فكأنهم بذلك لم يبتغوا نفع الانسان ولا نفع الانسانية ، بل رموا الى ترهيب الناس وترغيبهم ليستكينوا لاحكامهم خاضعين لترهاتهم ، لينفوزوا هم من طريق هذا الخضوع بالتمتع بالسلطة وحيارة الدنيويات .

ألم تتركب سورت قصور العظماء والامراء ورؤساء الدين بأسوار من الاحجار

الصلبة والحديد ، وقد ملئت جوانبها بالسراري وما ملكت الايمان من الائمة والعبيد ، وهنالك قامت المفاسق العامة تحت ستار الدين ، ونجت عنوان أن هؤلاء هم ظلال الله فوق الارض ، تعالى الله عما يفترون علواً كبيراً ؟

ألم تر كيف أن رؤساء الدين والامراء الذين رضوا من الدنيا بالوهم الذي كان يبدئه في روعهم هؤلاء ، قد عمدوا الى الدين يستغلون بالقرابات . وبيع الخفرانات في القرون الوسطى ، حتى فرغ مافي جيوب الناس وملئت خزائن معاهد الدين بالمال تقام به المذابح دساً وخديعة ، وتبنى به المحارق لتلتهم نيرانها أبر من أنجبت الانسانية من أبناءها بالانسانية ؟

ولئن كانت معاهد الدين قد فتمت اليوم السلطة الدينيوية فان العقلية التي كانت مفاتن السلطة الدينيوية عنواناً عليها ، لا تزال باقية حتى اليوم بفؤوسها ومعاولها . ولو أفسح لها اليوم المجال لرجعت سيرتها الاولى تحت ستار آخر يناسب مقتضى الزمان والمكان . هذه العقلية هي التي يجب أن تعمل على الغائها وقتلها اذا أردنا للجامعة الازهرية اصلاحاً صحيحاً قائماً على ماتتطالب المصالح الانسانية من حاجات في العصر الحديث .

٢ - حرية الفكر والتعليم الديني

قرأت منذ زمن قريب محاضرة ألقاها أحد أصحاب الفضيلة عنوانها « القرآن وحرية الفكر » وكنت أود من صميم قلبي أن يكون ماقال صاحب الفضيلة صحيح ، وأن لا ينصرف هذا الفرض على القرآن وحده ، بل ينصرف على كل الكتب السماوية ، يقول صاحب الفضيلة هذا القول في حين أن كلمة « الدين » وحدها ، وهي التي تعتبر على المعنى المستمد من الكتب السماوية ، لا تتفق وحرية الفكر بحال من الاحوال . ذلك لأن الدين في مظهره الخارجي « تسليم » وفي مظهره الباطني تأثير مما « فوق العقاية » نخضع له المشاعر .

هذا هو التحديد الصحيح لما نعني بالدين ، ولما نعني بالكتب المقدسة . اذن لا يجب علينا أن نخاط هذا الخاط الفاحش في تحديد المدرجات . فقد كان هذا

الخلط سبباً في أن يقوم بين فئات كثيرة مسائل خلافية ما أنتجت الا أسوأ النتائج للدين وغير الدين .

ان أول أثر يترتب على الاخذ بالطريقة العقلية في التفكير هو الصراع بين العقائد وبين المعقولات . لهذا يجب أن نفصل فصلاً تاماً بين حرية الفكر والتعليم الديني . فلتعليم الديني يجب أن يقوم على القواعد الأساسية التي وضعت في فلسفة الأديان مع تصفية البراميج من الأشياء التي ثبت علمياً بأنها غير صحيحة . فالدين والتعليم الديني يجب أن يلجأ الى التأمل ، وأن يخضع الى حاجات اليقين ، قبل أن يخضع الى حاجات العقل ، على أن يكونا في خضوعهما هذان مساران لمقتضى لحالات الأولية التي تتطلبها سعادة المجتمع .

لهذا لا نقول مطلقاً بأن الدين يجب أن يخضع لحرية الفكر . كما نقول بأن حرية الفكر لا يجب أن تخضع مطلقاً للدين . وما نقصد الى شيء الا أن نخلق حالة عقلية تبرر وجود الدين وتبرر وجود الحرية الفكرية ، باعتبارهما من الأشياء التي يحتاج اليها المجتمع ذهنياً ، حاجته الى الغذاء والكساء طبيعياً .

نريد أن يقوم بين الطرفين « تفاهم » يبرر به وجود كليهما على قاعدة أن تحرير الفكر لا يترتب عليه إلغاء الدين ، ولا أن التعليم الديني يترتب عليه إلغاء العقول . فانا اذا استطعنا أن نفرس هذه الفكرة في الجامعة الازهرية ، نكون قد بلغنا في جيل واحد ما بلغته أوروبا في قرون .

٣ — العنصر الجديد في الازهر

في الازهر عنصر جديد هو نجم يلمع في دياجير هذه الجامعة الكبرى . وكما يمر الاورو بيون لدى قيام مايدل على وقوع حوادث جديدة بقولهم « ان في الشرق نجماً جديداً » نقول بأن في سماء الازهر ضوء يلمع . وشماغاً يرسل بخيوطه المضئية الى أغوار العقلية التي قام عليها الازهر منذ أبعاد أزمانه .

يتكون هذا العنصر الجديد من بضعة أفراد لا يزالون يعدون على أصابع اليدين ، عرفوا ما تقوم عليه الجامعة الازهرية من المناقص فحاولوا أن يصلحوا ، لا باليد

ولا بالقوة ، ولكن باللسان فقط ، فأبعدتهم العقلية القديمة عن الإدارة ، ونفقتهم الى مقاعد للتدريس لا يمكن أن ينتفعوا بها ولا أن ينتفع بهم الطلبة فيها الذين يحضرون عليهم ، وبذلك مثل رجال الإدارة في الازهر الرواية القديمة التي كانت تمثل في القرون الوسطى على صورة تلاميذ مقتضى الزمان والمكان .

ولنا في الماضي القريب عظة . فان الأستاذ محمد عبده لولم يتربع على عرش الازهر ، وعلماء الازهر راغمين ، لما قامت من حوله تلك الضجة الكبرى ، وانفى كما ينفي اليوم أتباعه من علماء الازهر ، الى معهد من المعاهد التي لا يمكن أن يسمع له فيها صوت ، أو يكون الأحمجار التي تبني بها جدرانها صوت يتردد . ولماذا نذهب بعيداً ، ألم يكفر محمد عبده في نظر الازهر ؟ ألم يقيم له علماء الازهر دينونة صغرى ، فحكموا عليه بالتجديف ، وعينوا له المنزلة التي ينزلها من منازل جهنم ، فقال بعضهم انها سقر ، وقال البعض انها الباب السابع في الجحيم ؟

هذا العنصر الجديد ، الذي بدأ محمد عبده بوضع العقلية التي قام عليها ، هو العنصر الوحيد الذي يجب أن يكون له اليد الطولى في نظام الازهر . ومن التحكم في ادارته ووضع برامج . وما هذا العنصر على وجه التحديد الا أولئك الافراد الذين يجولون الدين باعتباره شيئاً محصوراً في النفس ، ويجولون العقل باعتباره مبدأ يحتاج اليه الحياة الانسانية . هم لا يلغون العقل ، ولا ينزلون الدين عن منزلته الحقيقية ، فبذلك جمعوا بين حاجات الدنيا والآخرة . هم النجم الجديد اللامع في سماء الازهر ، وهم لدى الواقع نواة الاصلاح . هم أشبه الناس من حيث حرية الفكر والاستمساك بقواعد الدين ، بذلك الرجل الانجليزي الكبير والفيلسوف الماروف الاستقف « انج » الذي يقول على الرغم من تدينه الشديد :

« يوجد ثلاث صور تتشكل فيها الافكار ، كما تتشكل المواد الكيميائية ، وهي الجمادية والسائلية والغازية . أما الصورة الاخيرة فمظهرها الخطائيات والمناقشات الخلافية . والثانية مظهرها الكتب . والثالثة مظهرها أساتذة « العلم » الذين يعرفون كيف يقدسون العقل قبل كل شيء في هذا الوجود »

٤ - الأزهر والسياسة .

ولست أدري كيف أن معهداً كبيراً كجامعة الأزهرية ، يجب في أول ما يجب عليه أنه ينصرف عن كل ما يخرج عن أفق الدين والعلم ، يكون نواة للحركات الرجعية في السياسة ، ويكون عاملاً من العوامل التي تمتد إلى صاحب كل نفوذ مصرياً أو أجنبياً ، ثم يمكن أن ينكر منكر أن آثار العقلية القديمة لا تزال قائمة في رءوس أهله .

لقد حررت النزعات الحديثة معاهد العلم عن السياسة . فلست تجد اليوم معهداً من المعاهد العليا له بالسياسة أقل احتكاكاً ، أو يكون احتكاكها دليلاً ساطعاً عند أهل العلم بأنه خرج عن وظيفته الطبيعية التي أسس من أجلها . وعلى الضد من هذا نجد الأزهر ، فإذا قويت يد السلطة الشرعية في البلاد كان الأزهر أول من يمد لها يداً . وإن انتعش حزب من الأحزاب كان الأزهر سنادته وعماده ، وإذا تحركت السلطة الفعلية لتفتت على حقوق البلاد ، كان الأزهر أول من يدعى بان مصر أقل البلاد حقاً في حكم نفسها . ولا نغني بالأزهر لدى الواقع إلا رؤوسه وذوو النفوذ فيه . ولا جرم أن لهؤلاء من الساطة في الأزهر ما يجعل كل سلطة بعدهم هباء أو فناء . فهم الأزهر والأزهرهم .

هم الذين مدوا يدهم لنا بليون بونابرت بعد أن اتخذ من الأزهر مرابطاً لحيله فكانوا عوناً على مصر ، وهم الذين تربعوا في مجالس الحكم ينفذون إرادة الفاصب ، بينما كان سوقة المصريين يمعنون في الفرنسيين تقتيلاً ، ويمعن فيهم بونابرت ذبحاً وتفظيماً .

هم الذين نصرروا سعد باشا رحمه الله ، فإذا جرى عليهم الاصفر الرنان من خزائن حكومة غير حكومة سعد ، نسي سعد ونسي الوفد ونسيت مصر ، ونسيت الوطنية وطفئت حرارة الحماس للاستقلال ، ولا آله إلا وزارة المالية ، وما شاء الوزير كان .

وكم تنقل الأزهر من مصاف الوطنيين إلى مصاف العقلاء ، وكم أخذ بيد السلطة الشرعية ينصرها . فإذا مدت له السلطة الفعلية يداً ، أنكر شرعية أهل الحكم

وراح يناوئها لينال « غفران » أهل القوة . ولم ينس أن الدين يأمر بالبر والتقوى ، ولم ينس أبداً « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، على أنهم نسوا الله والرسول وأطاعوا أولى الأمر ، مع تفسير أولى الأمر بحسب الأهواء والأغراض .

لا جرم أن هذه حالات لا تخلقها إلا عقلية عكفت على الأساليب التي ألفها العقل في القرون الوسطى . عقلية لا تعرف الدنيا إلا بقدر ما فيها من متعة ، ولا تعرف الدين إلا بقدر ما يكون وسيلة لخدمة الدنيا . ولا شبهة عندي أن في الغاء هذه العقلية ينحصر كل الإصلاح المنشود ، فلنلغ عقلية الأزهر ، ولنلغ الأساليب التي تجري عليها طرق التعليم لنفوز بجامعة أزهرية جذرية بالتقاليد التي يجب أن تكون لمصر في عصرها الجديد

* * *

٥ - تحليل السبب في الرجعية السياسية .

إذا أردنا أن نحلل السبب في هذه الرجعية السياسية التي يملها الأزهر الشريف ، فانا لا نحتاج إلى شرح أو بيان في إثبات أنها موجودة بالفعل وأن أثرها ملموس . واليك دلائل واحد :

يتهم الناس حزب الأحرار الدستوريين بأنه حزب اللادينية ، ويعرفون فوق هذا أن اسماعيل صدقي باشا من أساطين هذا الحزب . فلما مد إليهم يده بتحسين أحوالهم المعاشية من مرتبات ومكافآت وغيرها ، أصبح صدقي باشا ، ممثل الأحرار الدستوريين ، ناصر الدينية على اللادينية ، وما شاء الله كان . وبهذا قال الأزهر والأزهريون ، وبهذا أثبتوا نزعتهم الرجعية في سياسة البلاد ، على أنهم عنصر لا يستهان بقوته ، ولا ينكر في السياسة أثره .

أما تحليل السبب في هذه الرجعية فمحصله أن عقلية القرون الوسطى بما فيها من ضعف التأليف بين المثل العليا في الحياة ، لا تمكن الآخذين بها من الحكم على حقائق الأشياء حكماً بعيداً عن الأغراض الذاتية .

* * *

٦ - الإصلاح المنشود - النتيجة .

ينحصر الكلام في الإصلاح المنشود على شيء واحد هو :
 « العمل على تحرير العقول من أثر العقلية القديمة . وليس معنى هذا أن تغير
 البرامج فقط ، بل يجب أن تتغير أساليب الدرس والتفكير أيضا » .
 أما النتيجة فتتصرف في :

« ان الازهر سيظل عاملا رجعياً في الدين والسياسة والعلم مادام بعقليته الخاضرة .
 فاذا أمكن القضاء على هذه العقلية ، نكون قد أصاحنا الازهر وخلقنا منه جامعة
 جديدة جديدة بما تتطلع اليه من مثل عليا في الحياة »

أزهري حر الفكر